السّياسة التّحصينيّة البيزنطيّة في إفريقيا

أ. د./ ياسين رابح حاجي
معهد الآثار/ جامعة الجزائر2- أبو القاسم سعد الله
yacine.rabah.hadji@univ-alger2.dz; hadjiyacinerabah@gmail.com

الملخص:

هدف هذا البحث يتمثّل في فهم السّياسة المتّبعة من طرف الإمبراطورية البيزنطية عاصمتها القسطنطينية في إفريقيا وخاصة في فتراتها الأولى، حين اعتلى جوستينيانوس العرش والذي حقق مُراد سابقيه (الأباطرة) بإعادة احتلال إفريقيا، ملخصة في ثلاثة محاور نراها مهمة لتثبيت القدم البيزنطية في إفريقيا.

الكلمات المفتاحية: البيزنطيين، التحصينات الدفاعية، المقاطعات، جوستينيانوس، الكاثوليكيون، الاريوسيون.

The Byzantine Politics throw the Fortifications in North Africa

The Abstract:

The goal of this research is understand the following politics by Byzantine Empire in North Africa. & Especially in the first times, when Justinianus ruled his empire, who realizes all emperors' dreams by conquering again North Africa, by three axis, for byzantine settlement in Africa.

Key words: Byzantines, Defensives fortifications, provinces, Justinianus, Catholics, Arians.

كانت نظرة أباطرة الرومان في القسطنطينية اتجاه الغرب المفقود لصالح القبائل الجرمانية انه روماني بامتياز بالرغم من سيطرتها عليه كلية بتكوين ممالك قوية قائمة بذاتها ذات نفوذ، وقد سوقت الإمبراطورية إلى جيرانها[1] أن هؤلاء البرابرة الجرمان ما هم إلا عملاء أو وُلاَّة أسندت لهم مهمة تسيير المنطقة داخليا ولهم كل الحرية في ذلك، وفي أي وقت يمكنها استرداده، أما خارجيا فهي مسيطرة تماما على الوضع[2].

وعلى خلفية هذه النظرة، أعيد احتلال إفريقيا[3] في عهد الإمبراطور جوستينيانوس الأول في القرن السادس ميلادي، لسببين: الأول: مطالبته بإعادة استرداد الإرث الروماني الذي يعتبر في نظره حق

1- مثل الإمبراطورية الفارسية.

2- DIEHL, C., Justinien et la civilisation byzantine au VI Siècle, I, Paris, 1901, p. 130.

3- فضلنا استعمال إفريقيا أو أفريكا Africa لقربه من معناه التاريخي لهذه الفترة، ونقصد به المنطقة التي تضم النصف الغربي لليبيا إلى غاية حد نهر ملوية والتي كانت تسمى بأسقفية إفريقيا وعاصمتها قرطاجة، وتجنبنا الاستعمال الشائع والخاطئ لتسمية شمال إفريقيا لكونه مصطلح استعماري والذي يقصد به المستعمرات الفرنسية في الشمال الإفريقي وهي: تونس والجزائر والمغرب الأقصى (عن: حاجي، ياسين رابح، البازيليكات المسيحية في مقاطعة نوميديا، دراسة أثرية وتنميطية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، 2008م، ص. غ، الهامش 34).

شرعي كونه روماني، والسبب الثاني هو: كان يرى نفسه عيسى الحامي للتيار الكاثوليكي فوق الأرض ومن واجبه حماية الأفارقة المسيحيين ذوي المذهب الكاثوليكي من اضطهاد الوندال المسيحيين ذوي المذهب الآريوسيين[1].

عمل الإمبراطور جوستينيانوس جاهدا على إتباع سياسة تثبيت قدم الإمبراطورية في إفريقيا بعد الانتصار على الوندال، والتي تقوم على ثلاثة محاور نراها مجسدة ميدانيا من خلال آثار التحصينات الدفاعية العسكرية التي من شأنها بسط النفوذ البيزنطي، وهي: المحور الأول ويتمثل في إعادة التقسيم الإداري لأسقفية إفريقيا بتحديث طاقمها الإداري. والمحور الثاني والذي يشمل المنشآت التحصينية المتوزعة هنا وهناك في إرجاء إفريقيا المحتلة، والمحور الثالث، والذي يشمل إعادة الممتلكات الفردية العقارية والكنسية للكنيسة الكاثوليكية وإشراكهم في تقرير مصيرهم بإعادة إحياء الإدارة الرومانية النموذجية بكل أشكالها وخاصة المالية السارية المفعول في عرش القسطنطينية.

يتمثل المحور الأول في إعادة تقسيم أسقفية إفريقيا إلى مقاطعات، مثل التي كانت في الفترة ما قبل الوندالية، أراد جوستينيانوس تنظيم إفريقيا كما كانت عليه في العهد الروماني السابق، ومثلما نظم المشرق (Oriens) وإيليريا (إيليريكوم–Illyricum)، أراد كذلك لإفريقيا أن تكون مدارة من طرف إدارة جيدة، ليس تحت إدارة قنصل بسيط، بل تحت إدارة حاكم سام[2] –أي محافظ– وهذا بإعادة تكوين أسقفية (Diocèse)، وعاصمتها قرطاجة. حيث وضع على رأس الأسقفية حاكماً سامياً PRAEFECTUS (أو بما يسمى حالياً بالمحافظ) وتحت إمرته حكام مدنيين (السلطة المدنية) وقائد عسكري عام (Magister Militum) وخمسة دوقات (Duces) (السلطة العسكرية).

جاء مرسوم أفريل 534م تعريفاً بإرادة وأهداف السلطة الإمبراطورية. فوضع على رأس هذه الأسقفية بطريقاً اسمه أركيلايوس (Archelaos)، الذي مارس وظائف عليا في بيزنطة وفي إيليريا، وقد حضر إلى إفريقيا كأمين مالي عام للخزينة في البعثة الإمبراطورية الخاصة مع بليساريوس (Belisarius) وصولومونيس (Solomonis).

حسب معطيات قانون جوستينيانوس (Codex Justinianus)؛ قسم جوستينيانوس أسقفية إفريقيا إلى سبع مقاطعات: أربع منها يحكمها قناصل (Consulares) وهي: الطنجية[3]، والبروقنصلية، والبيزاكينا والطرابلسية، والثلاث الأخرى يحكمها برازيدس (Praesides) –أي الرؤوساء– وهي نوميديا، وموريطانيا وسردينيا.

---

1 – حاجي، ياسين رابح، التحصينات الدفاعية البيزنطية في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 2002م، ص. 05.؛ شنيتي، محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، الجزء الثاني، الجزائر، 1999، ص. 407.؛ DIEHL, C., Op. Cit., 1901, pp. 128-129.

2 – تحت إمرته يوجد سبعة حكام وهم: قناصل (Consulares) والرؤوساء (Praesides)، يمارسون مهام إدارية مدنية.

3 – كانت تابعة لأسقفية اسبانيا في الفترة ما قبل الوندالية.

في ظلّ نظام الأرخونية، لجأ الإمبراطور موريكيوس إلى هيكلة إدارية جديدة تكمن في ربط مقاطعة الطرابلسية بأسقفية مصر وأبقى المقاطعات التالية: البروقنصلية والبيزاكينا ونوميديا على نفس الحدود وجمع ما يمكن استرجاعه من ممتلكات موريطانيا السطايفية وموريطانيا القيصرية تحت مقاطعة واحدة سميت بموريطانيا الأولى، بينما موريطانيا الثانية ضمّت إليها مدينة سبتة وجزر البليار وأضيفت إلى أسقفية إفريقيا جزر سردينيا وكورسيكا[1]. في الحقيقة، كان التقسيم الذي ذكرناه آنفا حبرا على ورق ولكن الواقع مختلف تماما، فقد عُهدت ثلاث مقاطعات إلى قناصل وهي البروقنصلية، والبيزاكينا، والطرابلسية، أما الأربعة الأخرى بإدارة برازيدس وهي نوميديا، وموريطانيا الأولى (السطيفية)، وموريطانيا الثانية (القيصرية مع الطنجية)، وسردينيا[2] –أي سردينيا وكورسيكا–. وتضم موريطانيا الأولى: موريطانيا السطيفية الرومانية وبعض الأراضي من موريطانيا القيصرية حتى مدينة تيقزيرت. أما موريطانيا الثانية فتضم بعض المدن الساحلية لموريطانيا القيصرية والطنجية، والتي يتم الاتصال بها عبر البحر، لان البر كان تحت السيطرة المورية، مما دفع فيما بعد إلى البيرنطيين بربط أواصر الجيرة والصداقة والاعتراف بهذه الممالك ككيانات سياسية مستقلة قائمة بذاتها، إضافة إلى جزر البليار وجزء من اسبانيا وعاصمتها سبتام[3]. فُرض التقسيم الثاني على ارض الواقع في أسقفية إفريقيا لسببين: الأول نقص الميزانية التي لم تسمح بتجنيد جديد في الجيش والذي من شأنه المساعدة على احتلال مساحة اكبر نحو الغرب، كما كانت عليه مقاطعة موريطاينا القيصرية من قبل، والسبب الثاني والاهم: وجود مقاومة شديدة من المور الذين اعتادوا على الاستقلال[4] منذ الاحتلال الوندالي الذي حررهم بطريقة غير مباشرة من الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية، وكونوا ممالك خاصة بهم[5].

بعد انهزام الوندال في أول معركة له ضد الجيش البيزنطي بقيادة بليساريوس في شهر ديسمبر 533م، وصل الخبر إلى الإمبراطور جوستينيانوس حسب المؤرخ بروكوبيوس[6] الذي عاصر الأحداث،

1- DIEHL, C., L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Paris, 1896, pp. 467- 469.؛ دريسي، سليم، البيزنطيون في شمال إفريقيا، الاحتلال والعمارة الدفاعية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2008م، ص. 81.

2- DIEHL, C., Op. Cit., 1896, pp. 107-110.

3- Ibid., pp. 467-468.

4 – شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص.410.؛ BURY, J. B., History of the later roman empire: "from the death of Theodosius I, to the death of Justinian", II., St Martins press, 1958, pp. 140-141. ; DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 42.؛ للمزيد من التفصيل يراجع: PROCOPE DE CESAREE, La Guerre Contre les Vandales, traduit et Commenté Par: ROQUES, D., Paris, 1990, II., VIII., pp. 140-142.

5- حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2002م، ص. ص. 74، 78، 79.

6- ولد بروكوبيوس أواخر القرن الخامس الميلادي بقيصرية على الساحل الفلسطيني، يعرف بالقيصري (PROCOPIUS De Caesarea) نسبة إلى مدينة قيصرية مسقط رأسه، وعاش في القسطنطينية منذ وقت مبكر، إغريقي الثقافة تقلد مناصب إدارية أهمها وظيفة الكاتب الرئيسي للقائد البيزنطي بليساريوس فصحبه في حملته على أفريقيا عام 533م، ثم إلى إيطاليا وبلاد فارس. عاش

فصاح: "جميع البلاد الليبية ضمت إلى الإمبراطورية" أو بعبارة أخرى "لقد أعاد إلي الله أفريقيا بجميع مقاطعاتها"[1]، مع أن الجيش البيزنطي لم يتجاوز تعقبه لفلول الوندال منطقة عنابة (هيبو ريجيوس). إن عبارة الإمبراطور هذه ليست سوى انخداع أو دعاية مقصودة، ذلك أن البلاد كانت لا تزال تحت سيادة أهلها (الممالك المورية[2])، وسوف لن يستطيع البيزنطيون تحقيق أحلامهم في السيطرة على جميع المقاطعات الرومانية بإفريقيا، ذلك أن أسطولهم الذي كان يهاجم تلك المقاطعات من البحر لم يتمكن من

الأحداث التي دوّنها عن قرب واستفاد من مشاهداته وملاحظاته الميدانية عن: PROCOPIUS, History of the Wars, Book I., Translated by DEWING, H.B., London, 1971, pp. VII-XIII. عاد إلى القسطنطينية عام 542م، ومارس وظائف مختلفة في جهات الإمبراطورية حتى سنة 562م التي توفي فيها على أغلب الظن.

يعتبر بروكوبيوس أهم مؤرخ رسمي للإمبراطور جوستينيانوس وللأحداث التي عاشها، عن: شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص. 448.؛ فرج، وسام عبد العزيز، دراسات تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية من 324-1025م، إسكندرية، 1987، ص.61.؛ للمزيد يراجع: BURY, J. B., Op. Cit., pp. 417-430. ; DIEHL, C., Op. Cit., 1901, I., pp. XII-XX. وأشهر مؤلفاته هي (عن: حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2002م، ص. 07، الهامش 32.):

- كتاب الحروب في سبعة أجزاء، خصص منها اثنان منها للحرب ضد الوندال، وقد انتهى كتابه عام 545م، وأصدره سنة 550 م، واتبعه بملحق عام 554 م يتعلق بالأحداث الموالية. عن: PARKER, S. T., Romans and Saracens, a history of the arabian frontier, USA, 1986, p. 05.
- كتاب التاريخ السري، الذي ألفه عام 550 م، ولم يصدر سوى بعد وفاة جوستينيانوس.
- كتاب بناءات جوستينيانوس ألفه في أخريات أيامه (558م-560م). إذ أدخل في وصفه عصر الإمبراطور جوستينوس الأول (518م-527م)، فبدأ بروكوبيوس في كتابه هذا بنقلنا في جولة مستفيضة على حدود الدولة البيزنطية، وذلك بعد الحديث عن القسطنطينية، بادئا من الموقع الحساس **دارا** في أعالي مقاطعة ميزوبوتاميا، ثم متوجهاً غرباً وجنوباً إلى سوريا ثم مستمراً شمالاً بمحاذاة الحدود الأرمينية وحتى البحر الأسود ثم البلقان وثراس ثم متنقلاً إلى فلسطين وإفريقيا إلى الأطلسي (ولم يتحدث المؤلف عن إيطاليا). وقد قام جوستينيانوس بالعمل في كل مكان على إعادة تقوية المنشئات الدفاعية القائمة وبناء تحصينات جديدة وإقامة قنوات المياه والآبار والجسور وتحويل الأنهار، وكان الإمبراطور انستازيوس، قد بدأ تلك الأعمال التحصينية في عهده، واستمر بها جوستينيانوس على نحوٍ أشمل وأضخم، وكان تحت تصرفه أفضل المهندسين والتقنيات في العالم. وبإقامة تحصينات أشبه بخط حول إمبراطوريته. وانتهى كتاب بروكوبيوس عند تلك النقطة بالذات، فذكر: "لا يوجد شك عند أي شخص في أن الإمبراطور جوستينيانوس قد دعم الدولة وعززها ليس فقط بالتحصينات، بل كذلك بالحاميات من الجنوب من الحدود الشرقية وحتى مغرب الشمس تلك هي حدود السيطرة الرومانية". عن: مانجو، سيريل، العمارة البيزنطية، ترجمة: رندة فؤاد قاقيش، دمشق، الطبعة الأولى 1999م، ص. 59.؛ فرج، وسام عبد العزيز، المرجع السابق، ص. 87.

1 - شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص. 409.؛ LOT, F., L'art militaire et les armées Au moyen âge en Europe et dans le proche Orient, I., Paris, 1946, pp. 36-38.؛ BURY, J.B., Op. Cit., pp. 132-135. ; GIBBON, E., The Decline and fall of the Roman Europe, Vol. II., New york, s. d., pp. 538- 539. ؛ للمزيد من التفصيل يراجع المصدر: PROCOPE DE CESAREE, Op. Cit., pp. 89-99.

2 - ظهرت هذه الممالك خلال الفترة الوندالية وتتميز باستقلاليتها المحضة، حافظت على الإدارة الرومانية في تسيير شؤونها، واستعملت القانون الروماني في حياتها.

احتلال سوى بعض المدن المرفئية على طول الساحل النوميدي- الموريطاني، مثل : عنابة، وجيجل، وبجاية وشرشال[1]. بدون أن ننسى مدينة سبتة الواقعة على ساحل موريطانيا الطنجية. وكانت هذه المراكز معزولة ويتم الاتصال بها عن طريق البحر لان باقي الأراضي والمدن كانت تابعة للإمارات المحلية المورية في الموريطانتين (القيصرية- الطنجية). وكذلك تم احتلال عدد من الجزر القريبة من الساحل الأفريقي منها: كورسيكا، سردينيا، وجزر البليار[2]. وفي الواقع لم يحتل بليساريوس سوى ما كان بيد الوندال، وهو إقليم متواضع من المقاطعة البروقنصلية وبعضا من البيزاكينا.

وقد وجد البيزنطيون جميع البلاد الواقعة في كل من المقاطعات: الطرابلسية ونوميديا الجنوبية بما فيها منطقة الأوراس مستقلة في شكل إمارات قوية، كانت تبسط سيطرتها على معظم الأراضي الموالية لها من المرتفعات المذكورة في العهد الوندالي، سواء برضا دولة الوندال أو بدون رضاها. ومن المرجح، أن الكثير من تلك الإمارات كانت حليفة لملوك الوندال[3]، الذين استعملوهم لحماية حدود مملكتهم من جهة الجنوب، وليضمنوا تجارة داخلية توفرها لهم هذه القبائل.

ومن بين ملوك المور وأقواهم هو ملك الأوراس[4] إيابداس (Iabdas)، الذي كان بإمكانه حسب بروكوبيوس، أن يجمع ثلاثين ألف فارس مرة واحدة. وكان إلى جانبه ملك الحضنة وجنوبي الأوراس المدعو أورتاياس (Orthaias)، وكانت موريطانيا كلها تحت قيادة ملك دعاه بروكوبيوس مستيغاس (Mastigas) ما عدا مدينة قيصرية (شرشال)، أما في غرب القيصرية أي جنوبها الغربي فقد أنشأ الملك مازونا (Masuna) مملكة كبيرة -في أوائل القرن الخامس الميلادي- ضمّت مدنا مشهورة منها تيهرت، وفرندة، وألتاوا (Altava- أولاد ميمون) وعين تموشنت (ألبولاي=Albulae). إن هؤلاء الملوك والأمراء المعتزين دائما بانتصاراتهم على الوندال[5]، وقفوا في وجه البيزنطيين وقاوموهم بشدة[6].

يشمل المحور الثاني إنشاء التحصينات لتثبيت القدم الإمبراطورية البيزنطية في إفريقيا، حيث بادر صولومونيس بتنفيذ الأوامر التي زوّده بها الإمبراطور مفادها: توسيع المقاطعات الأفريقية إلى الحدود التي وصلتها في عهد الإمبراطورية الرومانية[7] قبل الغزو الوندالي-الموري أي في الفترة ما قبل الوندالية[1]. إن

---

1 - شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص. 409.

2 - DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 36.

3 - شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص. 411.؛ حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2002م، ص. 11.

4 - لمزيد المعرفة عن جبال الأوراس وتقسيماته في هذه الفترة يراجع: MASQUERAY, E., « Le djebel Chechar », In R. Af., 22, 1878, pp. 259-281.

5 - كاش نقيشة الرجوع الى هامش ديهل.

6 - DIEHL, C., Op. Cit. ; شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص ص. 411-412.؛ حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2002م، ص. 12.

7 - ALBERTINI, E. ; MARÇAIS, G. ; YVER, G. ; PRIGENT, E., L`Afrique du nord française dans l`histoire, Paris, 1955, p. 122.

في هذا النص الرسمي اعتراف صريح بمشاركة المور في السيطرة على المقاطعات الأفريقية، وأضاف الأمر الإمبراطوري بأنه يجب إحياء الليمس مجهزا بتحصينات المكون من المدن الحصينة والقلاع التي كانت سابقا للسيطرة على أفريقيا[2].

في الوقت الذي غادر فيه بليساريوس أفريقيا بأمر من جوستينيانوس، ترك الوضع الأمني فيها متوترا والوجود البيزنطي محفوفا بالمخاطر على الرغم مما كان يبدو ظاهريا من صور الخضوع، خاصة وأن المدن كلها كانت عارية من الأسوار التي أهملت صيانتها في الفترة الوندالية. ولذلك بادر جوستينيانوس بتعيين صولومونيس قائدا على جيش أفريقيا، وهو شخص كان مساعدا لبليساريوس أثناء الحملة، فجمع في يده السلطات المدنية والعسكرية[3].

وهكذا بدأ صولومونيس بتنفيذ أوامر الإمبراطور، بإرساله كتيبة بيزنطية إلى البيزاكينا التي انهزمت وأبيدت عن آخرها، ثم قاد صولومونيس الحملة بنفسه بكل ما يوجد لديه من قوات[4]. فقام بهجوم معاكس وصفه بروكوبيوس بأنه كان ساحقا، حيث سبى وغنم فيه الكثير من الأنفس والممتلكات[5]، ثم اتجه نحو جبال الأوراس من مقاطعة نوميديا حيث فشل في حملته الأولى ولكن في الثانية نجح، وانهزم المور في نهاية 535م. وعند رجوعه من حملته، ترك جزء مهم من الجيش في المقاطعة، وبما أن المنطقة كانت مفتوحة أمام غزوات السكان الأصليين، فقد أحكم تحصينها صولومونيس بسلسلة من التحصينات، وإن هذه السلسلة تعتبر كحاجز منيع يعصم وصول المور البدو من الجنوب إلى التل[6].

ولكن قبل أن ينتهي صولومونيس من إنجازاته التي أمر بها الإمبراطور جوستينيانوس، ظهرت ثورة داخلية في قرطاجة في ربيع 534م، والتي اضطرته للفرار إلى صقلية. ومن أسباب هذه الفتنة هي: صرامة صولومونيس، عدم الانتظام في دفع أجور الجنود وكذا عدم رضى بعض العناصر الجرمانية من المذهب الآريوسي التي كانت منظمّة في الجيش البيزنطي. تجمع الجنود الثائرين في سهل مجردة، وقد اختاروا قائدا من بينهم اسمه ستوتساز (Stotzas)، أما بالنسبة لملوك المور في الأوراس فقد وعدوهم بالمساعدة.

---

1 – Codex Justinianus, I, 27, 2, 4. ؛ شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق.

2 – شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق.

3 – نفسه، ص. 412.

4 – ALBERTINI, E. ; MARÇAIS, G. ; YVER, G. ; PRIGENT, E., Op. Cit., p. 124.

5 – PROCOPIUS, Buildings, General index to Procopius, translated by the late H.B. DEWING, London, 1971, V, p. 462.؛ شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص. 413.

6 – DIEHL, C., Op. Cit., 1896, pp. 73-74.

التقى صولومونيس ببليساريوس قائده الأسبق في صقلية، ورجعوا إلى أفريقيا[1] ونجحوا في الدفاع عن قرطاجة، بينما أصبح ستوتساز القائد الوحيد على رأس هذه القبائل.

كان جوستينيانوس بحاجة ماسّة إلى قائده بليساريوس في إيطاليا وعيّن مكان صولومونيس جرمانوس[2] (Germanus)، والذي عرف كيف ينتزع من ستوتساز جزء من جيشه وكذلك حلفاءه المور ثم ظفر بالانتصار في ربيع سنة 537م في الحدود الفاصلة بين زوجيتان (Zeugitane)[3] ونوميديا، ستوتساز لاذ بالفرار نحو الغرب.

في بداية 539م، أرسل جوستينيانوس صولومونيس إلى أفريقيا مرة ثانية[4]، واستغل هذا الأخير انجلاء الوندال وتراجع المور وأخذ ينفذ أوامر الإمبراطور بشأن الترتيب الإداري، فنصب حكاما للمقاطعات وقادة عسكريين على رأس أربعة أقاليم عسكرية هي: الطرابلسية ، والبيزاكينا، ونوميديا، وموريطانيا، على أن يتخذ أولئك المسؤولون مقراتهم بعواصم المقاطعات وهي على التوالي : لبدة، وقفصة أو تيلابت، وكيرتا، وقيصرية. وكان على الحكام أن يباشروا العمل من أجل إعادة الاعتبار للتحصينات وخاصة منها الواقعة في مواجهة المور الثائرين، حيث كانت أوامر الإمبراطور جوستينيانوس مشددة بشأن إحصاء كل النقاط السوقية والموجودة على شبكة طرقات عنكبوتية لإحاطة أولئك المور بسلسة من القلاع الحصينة لمنعهم من الإغارة على السهول الخاضعة للبيزنطيين[5].

استطاع صولومونيس أن يفرض فترة من الهدوء امتدت أربع سنوات[6]، عن طريق سلسلة من المراكز الدفاعية التي أنشأها[7] في كل من طبنة (Tubunae) وزابي جوستينيانة (Zabi Justiniana)، وغيرها. إذ أصبحت إفريقيا البيزنطية تمتد ابتداءً من المقاطعة الطرابلسية شرقاً إلى النصف الشرقي من مقاطعة موريطانيا القيصرية غرباً ومن البحر شمالاً إلى غاية الشطوط[8] جنوباً[9].

تتميز المراكز الدفاعية العسكرية الجوستينيانية بتنوع يتماشى ووظيفتها المنوطة منها ومكانها الذي بنيت عليه، انتشرت على شكل شبكة طرقات اغلبها حافظت على نفسها بفضل الصيانة التي تلقتها في الفترة الوندالية تحت سلطة القبائل المورية وسلطة المملكة الوندالية.

---

1 – أي مقاطعة البروقنصلية وبعضا من مقاطعة البيزاكينا آنذاك.

2 – حفيد الإمبراطور (ابن أخته)، كان جرمانوس برتبة قائد قوات تراسيا (Magister Militum per Thraciam) على حدود نهر الدانوب، لدحر وطرد قبائل السلاف، أرسله الإمبراطور إلى مقاطعات إفريقيا عن:.DIEHL, C., Op. Cit., 1896, pp. 83-84.

3 – هي جزء من البروقنصلية.

4 – ALBERTINI, E. ; MARÇAIS, G. ; YVER, G. ; PRIGENT, E., Op. Cit., p. 124.

5 – شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص. 414.؛ حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2002م، ص. 13.

6 – ALBERTINI, E. ; MARÇAIS, G. ; YVER, G. ; PRIGENT, E., Op. Cit., p. 124.

7 – مراكز جديدة أنشئها وإعادة إعمار مراكز أخرى رومانية وأخرى أنشئها بليساريوس.

8 – شط الجريد وشط ملغيغ وشط الحضنة.

9 – DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 91.

تتكوّن هذه المنشآت من مجموعة نماذج، منها ما يمثل المنشآت الفترة الرومانية ومنها ما يختلف عنها من بعض الوجوه. ويمكن تمييز نوعين من المخططات في العمارة العسكرية للفترة البيزنطية، احدهما كان كثير الانتشار وهو يستمد ملامحه العامة من عمارة معسكرات الفترة الرومانية وذلك من حيث الشكل الإستطالي لمرسم السور الحائط بالهيكل العمراني، وتوزع أبراج عديدة على امتداد السور بأشكال تتحكم فيها أهمية الحصن والمحيط الجغرافي والموقع الطوبوغرافي. وعموما فزوايا هذا النموذج عادة ما تقوم عليها أبراج متينة متميزة عن الأبراج الموزعة على امتداد السور، وهذه الأخيرة تأخذ شكلاً تناظرياً على الجهات الأربع للحصن وتتفاوت من حيث العدد بين تحصين وآخر تبعاً لكبر المبنى. مثلاً: تبسة (تيفاست) نجد بها 14 برجاً (**مخطط 01**)، بينما لم تتجاوز حصن طبنة (توبونايي) 8 أبراج (**مخطط 02**). أما النوع الثاني فهو الذي تحكمت فيه طبيعة الموقع من حيث السّطح والخصائص الطوبوغرافية فآخذ شكلاً غير منتظم. مثلاً: تيفاش ذات مخطط بيضوي غير منتظم الجوانب. ومزودة بـ10 أبراج غير متساوية الأبعاد على طول السور (**مخطط 03**).

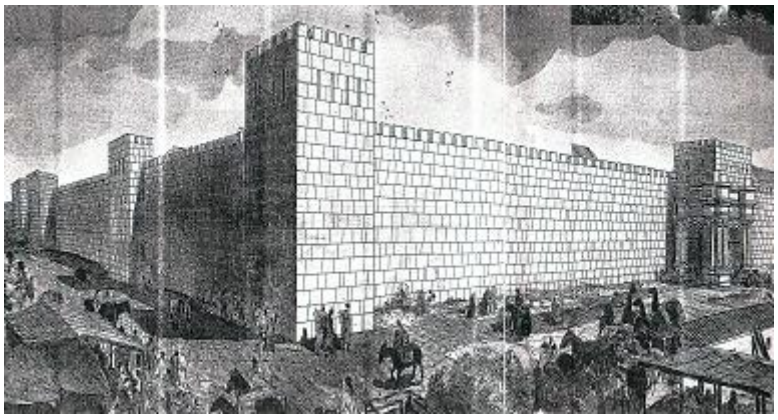

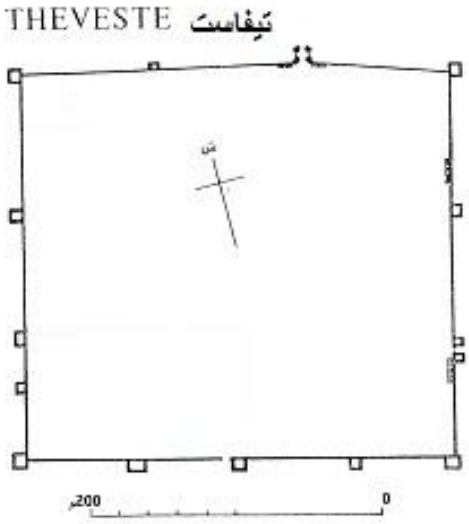

مخطط 01 وشكل 01: المدينة المحصنة تيفاست (تبسة) أما فيما يخص الشكل فهو إعادة تخيل لسور المدينة الدفاعية تيفاست للفترة البيزنطية.

عن: PRINGLE, D., The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest": An account of the military history and archaeology of the African provinces in the 6th and 7th Centuries, BAR. Series 99, 1981, p. 585.

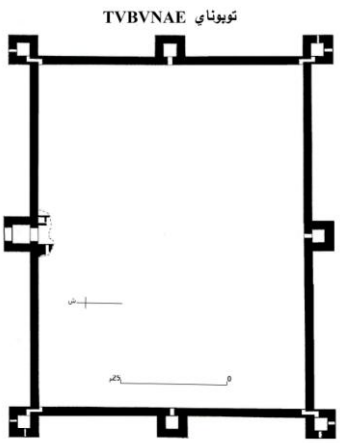

مخطط 2: قلعة توبوناي (طبنة).

عن: DIEHL, C., Rapport sur deux missions archéologiques dans l'Afrique du nord, Paris, 1894. p. 23.

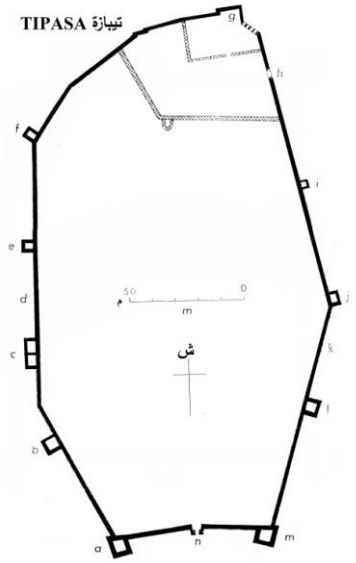

مخطط 3: المدينة المحصنة تيبازة (تيفاش).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 596.

إنّ التّحصينات الإفريقية في هذه الفترة تنحصر أمثلتها في صنفين[1]: الصنف الأول: مبانٍ ذات صبغة رسمية مبنية بأمر من السلطة الإمبراطورية. والصّنف الثّاني: مبانٍ ذات صبغة محلية بنيت من طرف السكان المحليين. وتحت هذين الصنفين تندرج عدة نماذج أهمها:

1- المدن المحصنة (Civitates):

يوجد عن طريق الشواهد الأثرية 17 مدينة مسورة والتي تعتبر مدناً محصنة، تتجاوز مساحتها 03 هكتارات. وتميزت بالأسوار العالية المحيطة بها، وكان لها مداخل عليها حراسة قوية، ويقيم بها سكان من أصل روماني أو متمتعون بالرعوية الرومانية (الجنسية) ممن يمارسون النشاط الزراعي والحرفي، وهي تخضع للنظام الإداري الروماني. وتحتوي على العشرات من الأبراج، ومحصنة بطريقة جيدة، وتنقسم إلى قسمين: قسم مدني، وآخر عسكري. القسم المدني، به مساكن لأشخاص عاديين يعيشون داخل الأسوار، كنائس، ساحات عامة، أسواق،...الخ، وكل ما يخص الحياة المدنية. أما القسم العسكري فتسكنه حامية عسكرية فقط وفيه سكنات خاصة بها، وجزء منه خاص بالقيادة، وفيه حمامات ومطبخ ومخازن المؤن والذخيرة (الأسلحة) وخزانات المياه، وإسطبلات للخيول، كنيسة أو مصلى. وكذا تعد هذه المدن ملجأ للريفيين المنتشرين بالمنطقة وضواحيها في حالة تعرضهم للغزو من طرف المور (**مخطط 03- 10**).

1 – يراجع: DURLIAT, J., Les dédicaces d'ouvrages défense dans l'Afrique byzantine, Palais Farnèse (Rome), 1981.

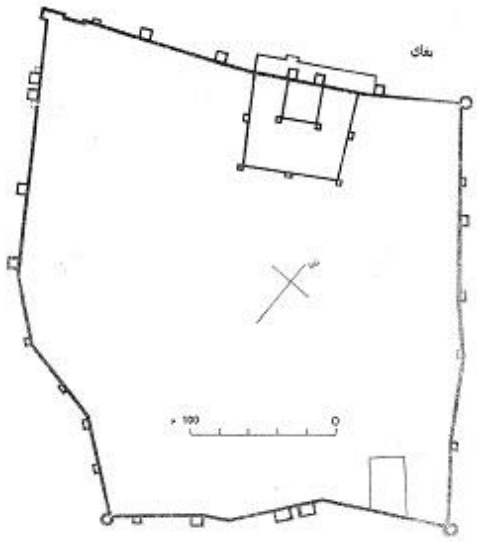

مخطط 4: المدينة المحصنة بغاية (بغاي).

عن: DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 34.

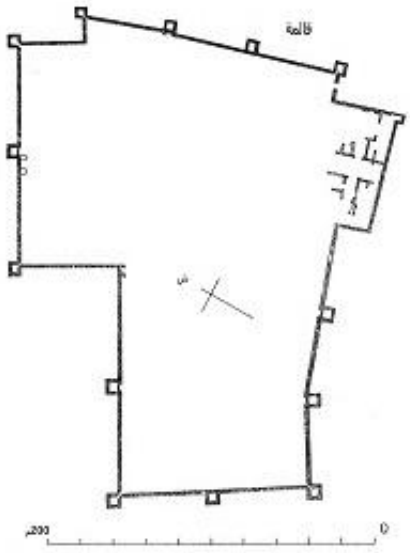

مخطط 5: المدينة المحصنة كالامة (قالمة).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 574.

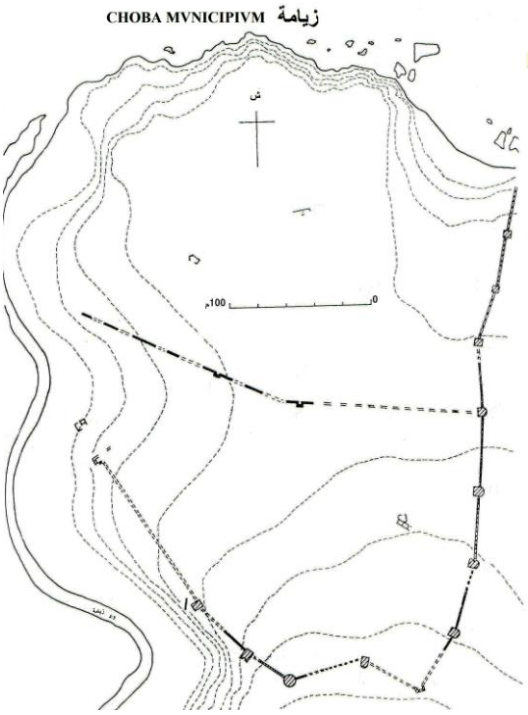

مخطط 6: المدينة المحصنة شوبا (زيامة).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 599.

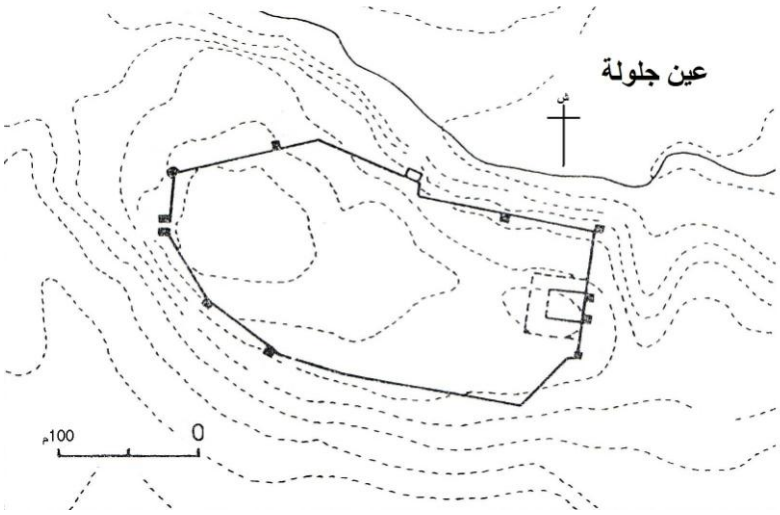

مخطط 7: المدينة المحصنة عين جلولة.

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 576.

مخطط 8: المدينة المحصنة صبراطة.

عن: دريسي، سليم، المرجع السابق، ص. 321.

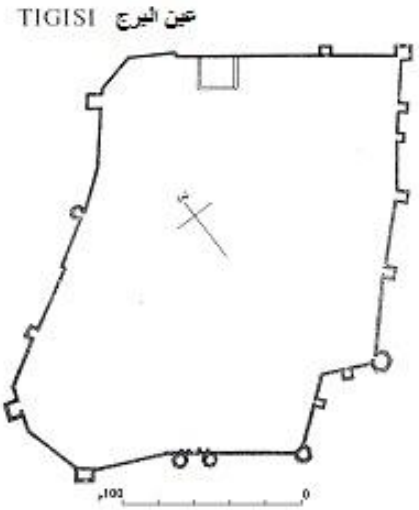

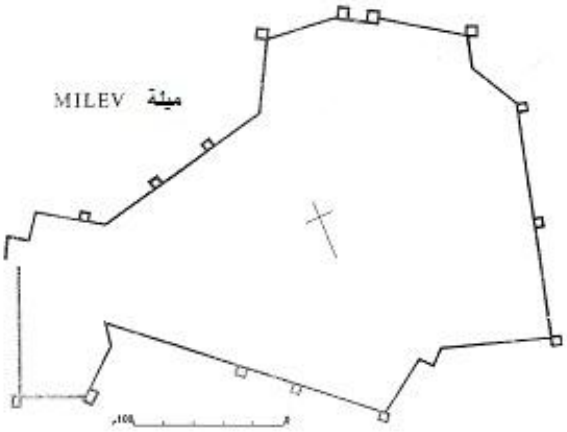

مخطط 9: المدينة المحصنة ميلاف (ميلة).

عن: GSELL, S., Les monuments antiques de l'Algérie, Paris, 1901, p. 295.

مخطط 10: المدينة المحصنة تيقيسيس (عين البرج).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 575.

2- <u>القلاع المحصنة (Castellas)</u>:

هي شديدة التحصين، كانت عادةً قصوراً محصنة ذات أبعاد معتبرة، ولا تحتوي إلا على مبانٍ عسكرية وتطل على المدينة[1]، وذات مخطط منتظم، مستطيل الشكل غالباً، بأبراج في الزوايا ويتخلل كل ضلع من أضلاعه برج وسطي وفي احد هذه الأبراج توجد البوابة الرئيسة. البعض منها معزولة وتحتل مواقع إستراتيجية، وأخرى مبنية كما ذكرنا أعلاه في مركز أو بالجوار المباشر لبعض المدن لحمايتها إذ تبقى هذه المدن المحروسة بدون تحصينات أو تحاط بسور بسيط. وهذا لا يمنع بوجود قلاع ذات مخطط غير منتظم وهذا راجع لطوبوغرافية المنطقة. كذا البعض منها تكون مفتوحة أمام السكان المحليين المدنيين، والتي تحتل وضعية إستراتيجية، من الموقع وتحرس السهول الكبرى، وتتحكم في العديد من الوديان، ومبنية خصيصاً للدفاع وتُسكن فقط من طرف حامية من الجيش. ويتميز تخطيط هذا النوع من المباني بكثرة غرفه المخصصة لإيواء الجنود أو لخزن المواد الثمينة والأغذية والمعدات الحربية أو لتجميع الحبوب والمواد العينية التي تمثل واردات الدولة المفروضة كضرائب على المناطق المتاحة لها (**<u>مخطط 02، 11-14</u>**).

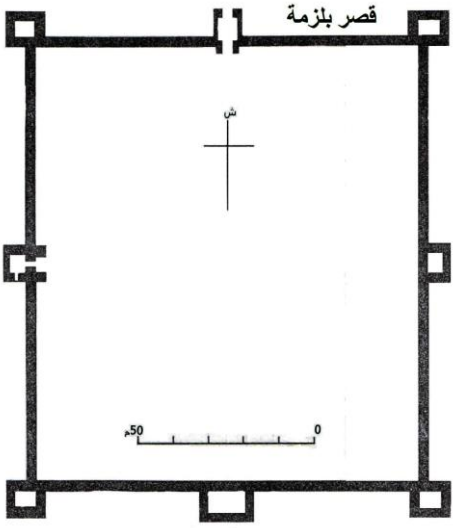

<u>مخطط 11:</u> قلعة قصر بلزمة.

عن: DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 19.

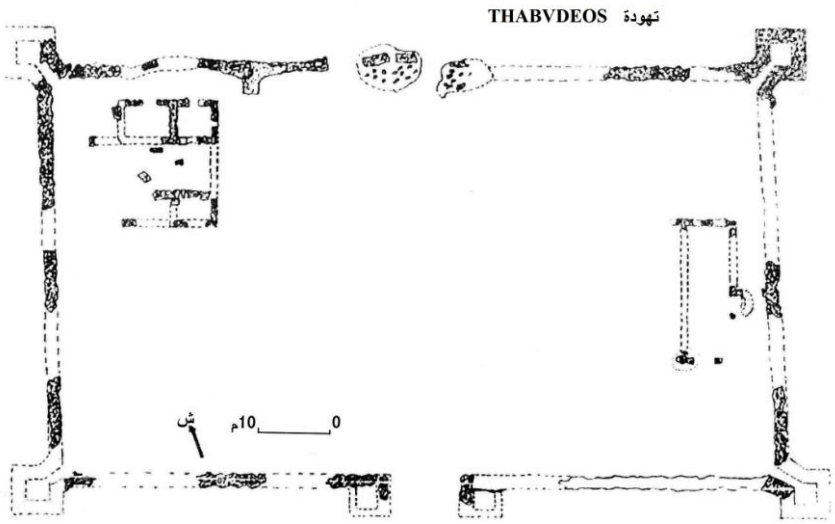

<u>مخطط 12:</u> قلعة تابوديوس (تهودة).

عن: HADJI, Y-R., «Thouda, aperçu archéologique », in Aouras, 3, 2006, p. 331.

1 – مثلا: في تيمقاد.

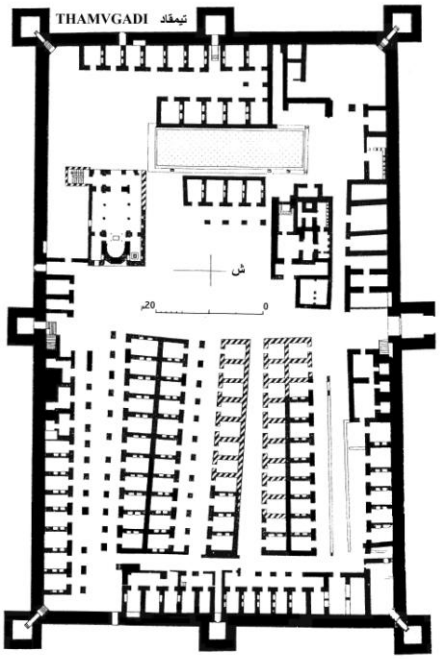

مخطط 13: قلعة ثاموقادي (تيمقاد).

عن: LASSUS, J., La forteresse Byzantine de Thamugadi: fouilles à Timgad, 1938-1956, Paris, 1981, p. 25.

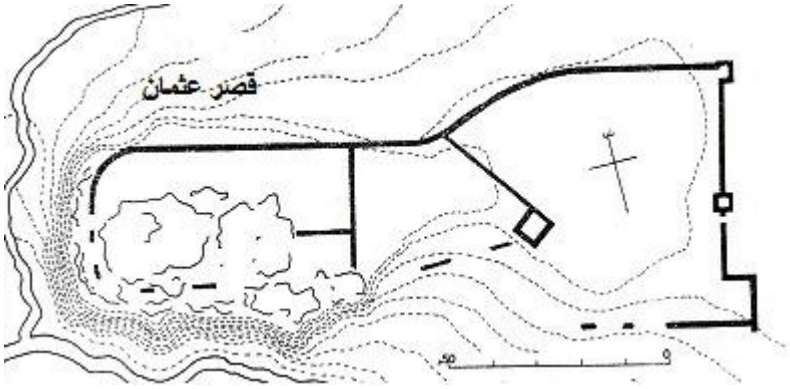

مخطط 14: قلعة قصر عثمان.

عن: GSELL, S., Op. Cit., 1901, p. 253.

3- الحصون (Castras) أو الكوادريبورقيا (Quadriburgia):

إن الخصائص العامة للحصون، والتي تتمثل باختيار الموقع الجغرافي الملائم المحصن من الناحية الطبيعية ومرتفعاً يشرف على المنطقة المحيطة به، ومن الممكن، أن تتواجد معزولة وعلى مرتفعات أو في المدن أو في القرى –أي المناطق الحضرية–. وان يكون قريباً من مجرى مائي أو يحفر له بئر في إحدى ساحاته يزوده بالمياه عند الحالات الطارئة، وفي أوقات الحصار، كذلك يتميز بجدرانه السميكة المنيعة وبمحدودية وسائل الدخول والخروج منه وبمناعة مدخله الذي يصعب الوصول إليه أو اختراقه. وبه غرف لإيواء الجنود المرابطين له ومخازن للمؤن والأسلحة، يمكن أن يستعمل مخزناً لإيتاء الضرائب المفروضة من الدولة على الأهالي المحليين. وهي خاصة بالجنود. إذ كانت في الغالب، ثكنات من نوع خاص حيث تُخزن المعدات الحربية والأسلحة، ويستعملها كذلك السكان كملجأ يلتجئون إليه في وقت الحاجة، بحيث لا يعيش بها احد، لان الفلاحين –أي الجنود– يسكنون بيوتهم، ولا يجتمعون إلا في حالة الحرب، وكذا فان معنى كلمة Castra يتعدى إلى أكثر من معنى واحد.

وكما نعرف أنّ هذا الصنف غير جديد ومعروف في نظام الليمس الروماني. وحسب قائمة برينقل، وجد حوالي 20 نموذجاً، مربع الشكل بأربعة أبراج زوايا مربعة في اغلب الأحيان. ودائرية في حصن قاستال (**مخطط 15**)؛ ومزوَّد ببوابة، ومساحته تتغير ما بين 0.08 هكتار (في أوبِّينا) (**مخطط 16**) و0.38

هكتار (في ثيقنيكا) (**مخطط 17**). وكذا حصن مادورة مساحته الكلية 0.17 هكتار (**مخطط 18**)، وكذا الذي في حالة جيدة من الحفظ (قصر لمسة) مساحته 0.10 هكتار (**مخطط 19**). أن هذا الصنف يستطيع أن يساعد مدينة مسورة كبيرة وواسعة بصفته حصناً دفاعياً في عمليات الدفاع، مثلاً: في لاريبوس، سوفاس، بغاي (**مخطط 4**)، ثيقيسيس (**مخطط 10**)...الخ.

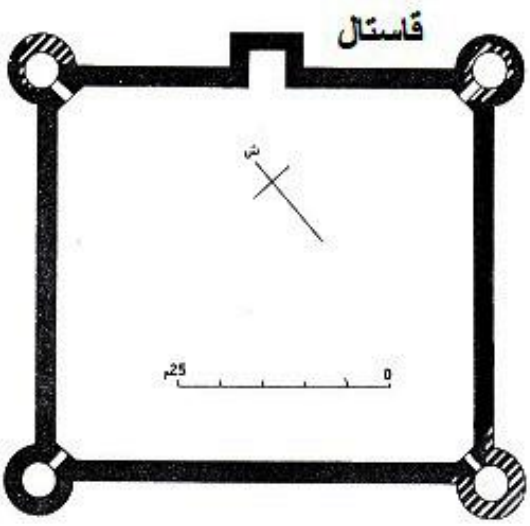

مخطط 15: حصن قاستال.

عن: GSELL, S., Op. Cit., 1901, p. 290.

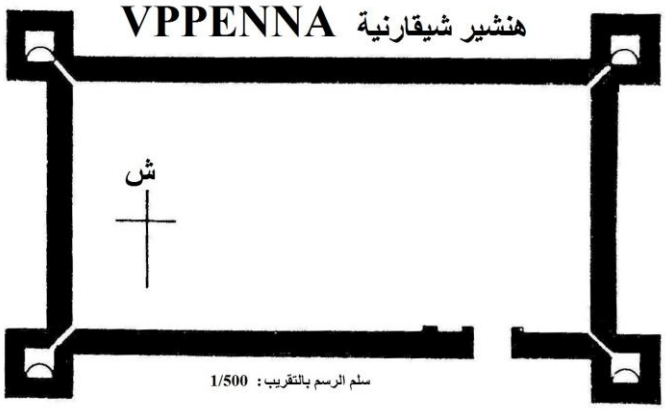

مخطط 16: حصن أوبينا (هنشير شيقارنية).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 562.

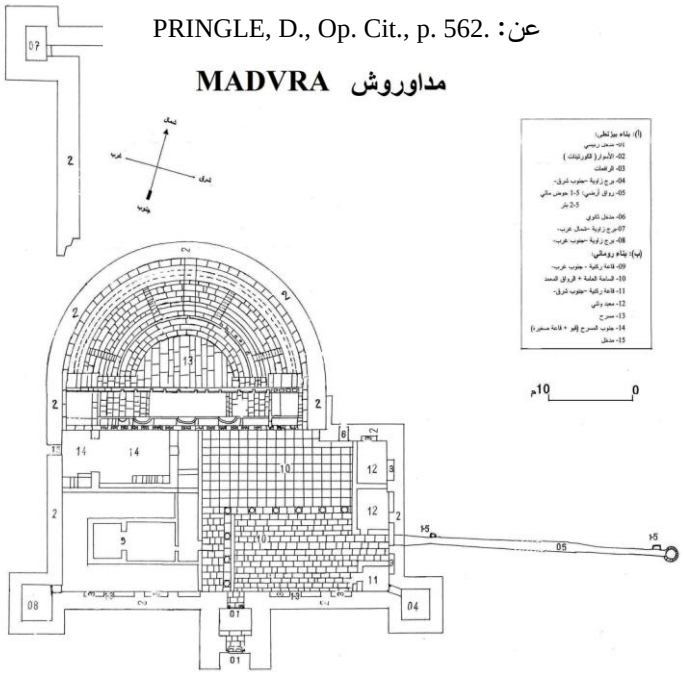

مخطط 18: حصن مادوروس (مداوروش).

عن: بافولولو، م.، مجاني، ع.، حصن مادوروس البيزنطي، مذكرة ليسانس غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2006-2007.

مخطط 17: حصن ثيقنيكا (عين تونقة).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 595.

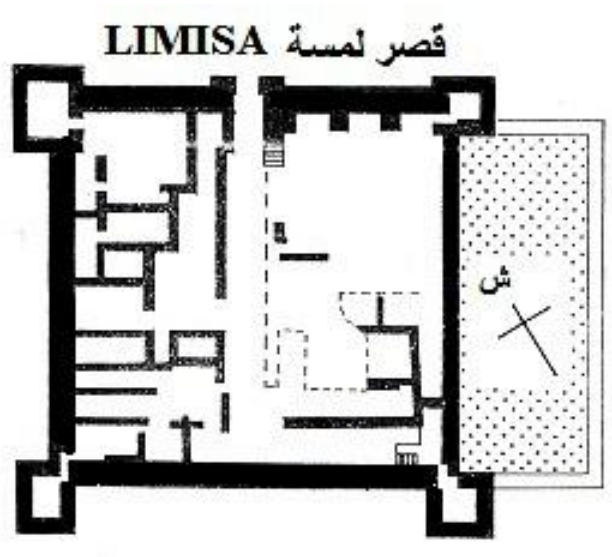

مخطط 19: حصن ليميسة (قصر لمسة).

عن: PRINGLE, D., Op. Cit., p. 565.

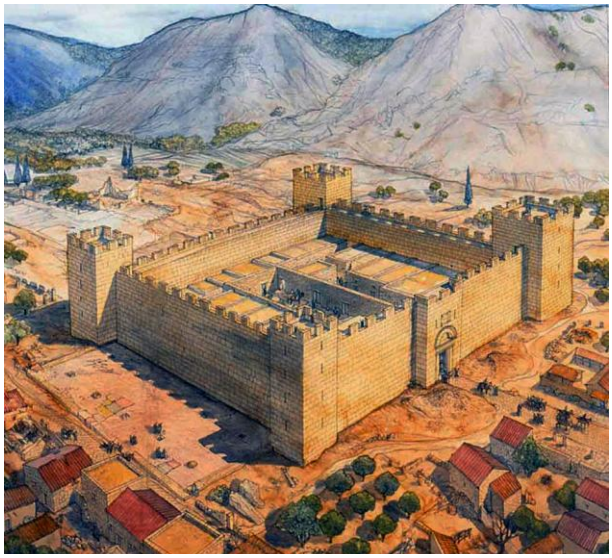

شكل 2: إعادة تشكيل قصر لمسة من طرف بن عبد الله وقولفان.

عن: BEN ABDELLAH, Z. ; GOLVIN, J-C., «La frontière Byzantine de Ksar Lemsa », Tunisie : Du christianisme à l'Islam IV-XIV siècle, lattes, 2001, pp. 115-119.

4- الأبراج المحارس (البورقيس Burgis) (وأيضا تسمى Turres):

هي مراكز صغيرة الحجم كانت تقام في نقاط إستراتيجية، للقيام بالحراسة والمراقبة فيما بين المدن والقلاع. وهي ذات مساحة صغيرة وتقام فوق تلول طبيعية أو اصطناعية مرتفعة وهناك يتيح موقعها الإشراف على منطقة واسعة حولها تمكن القائمين عليها من مشاهدة الأخطار المحدقة بهم ومراقبة مجموعة المهاجمين قبل اقترابها مما يتيح فرصة إرسال إشارات الإنذار والتحذير إلى المعسكرات والمدن القريبة منها لاتخاذ التدابير الوقائية اللازمة. وتبدو أن أفضل الأماكن المقترحة لإنشاء مثل هذه المراكز، كان عند تخوم الممالك والمقاطعات أو عند مفترق الطرق المهمة أو أن تتوسط عدداً من المواقع الدفاعية المنتشرة في أماكن ذات تضاريس طبيعية تحول دون إمكانية الاتصال فيما بينهما بسهولة ويُسر، فتكون هذه الأنواع من الأبراج بمثابة مركز تسلم وإرسال المعلومات والأخبار وتوزيعها بين المواقع الدفاعية تلك وتصبح في هذه الحالة جزءاً مهماً في نظام المواصلات العسكرية في المنطقة.

كما يوجد نوعان من الأبراج: النوع الأول هو برج رئيس (Donjon)، يعتبر منشأة مستحكمة تشيد داخل المدن أو خارج أسوارها، كما تُتخذ معقلاً دفاعياً أخيرا وملجأ أمينا يحتمي خلف جدرانها المنيعة أصحاب السلطة والنفوذ وبخاصة عند تعرض المدينة لخطر هجوم خارجي أو عند حدوث تمردات واضطرابات داخلية. ويكون منعزلاً عادةً، وأهميته العسكرية لا يمكن تجاهلها كالبرج الرئيس للمدينة المحصنة بغاي (**مخطط 04**).

أمّا النّوع الثّاني، فهو أبراج ومحارس توجد على الطرق المهمة وعلى مفترق هذه الأخيرة وأخرى توجد في السهول وفي مداخل المنافذ أو أفواه المضايق الجبلية أو لحراسة مدينة صغيرة أو قرية أو مزرعة. هذه المنشآت لها دور عسكري واضح وتسكن من طرف حامية صغيرة وهي وحدة شبه عسكرية يطلق عليها اسم بورقاريي (Burgarii) أي الأبراجيون. بنيت بأوامر السلطة الإمبراطورية البيزنطية لتشارك في الدفاع عن الإقليم المحتل.

إنّ أغلب هذه المنشآت مبنية على نفس المخطط واغلبها مبنية بحجارة عشوائية الحجم. أو بالدمك (Pisé)، أو في بعض الأحيان من الاثنين معاً، كانت متينة جداً، إلى غاية انه تغنَّى بها الجغرافيون والرحالة العرب في العصور الوسطى، وهذا الأخير بسيط جداً، هو عبارة عن حصن صغير مربع أو مستطيل، وتكون الأسوار في الغالب اقل سمكاً من أسوار القلاع والمدن المحصنة إذ لا يتجاوز سمكها 1.40م. أحيانا نجد واجهتين مكونتين لسور البرج وبدون ترك أي مجال للردم وبالتالي ينتج لدينا جدار مضاعف بواجهتين ملتصقتين ويصل سمكه إذن في هذه الحالة إلى 0.80م، أبعاده تارة 40م أو 20م، واغلب الأحيان 10م في كل جانب، وقد تصل كحد أقصى إلى 25م. وله بوابة واحدة تغلق على الطريقة المستعملة لغلق الأبواب في هذه الأبراج، أو بوابة على شكل قرص من الحجارة، يتحرك داخل رواق بنفس سمك القرص. للدّخول تفتح على ساحة، ولا يحتوي على أبراج. وكذا وجدت أبراج بدون بوابة في الطابق الأرضي، ويتم الدخول إليه عن طريق سلم مثلما كانت دفاعات بعض المنازل–الأبراج (maisons tours) للعصور الوسطى في الطابق. التوزيع الداخلي للمبنى، إضافة إلى الساحة، نجد بئر أو خزان أو الاثنان معاً، وفوق الساحة توجد فتحة –كالبيوت التركية بوسط الدار– التي تحاط بغرف سكنية، بطابق أو عدة طوابق. وفيما يخص تاريخ هذا النوع، أن الكثير منها بنيت من طرف الأهالي المحليين (أشخاص)، وقد ظهرت في القرن الثالث الميلادي واستمرت إلى غاية الفترة الإسلامية. إن هذه الأبراج والمحارس كانت تلعب دور خط دفاعي متقدم بالنسبة للقلاع والحصون والمعسكرات، ويمكن أن تكون هذه الأبراج عبارة عن أقواس النصر مجاورة أو مدمجة في سور المدينة (**مخطط 20-23**).

كما توجد أبراج ومحارس بنيت من طرف الأهالي المحليين، –والتي يصعب تمييزها من تلك التي بنيت بأوامر السلطة الإمبراطورية– لإكمال النظام التحصيني في إفريقيا، وقد بناها السّكان بالطّابع المحلي. وهي منتشرة على طول الطّرق. ومسكونة من طرف أولئك السكان الذين يتولون حمايتها والدّفاع عن أنفسهم.

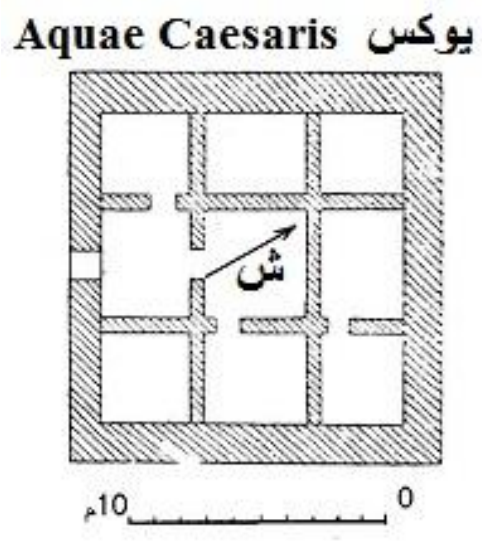

مخطط 20: برج محرس اكواي كايزاريس (يوكس).

عن: GSELL, S., Op. Cit., 1901, p. 293.

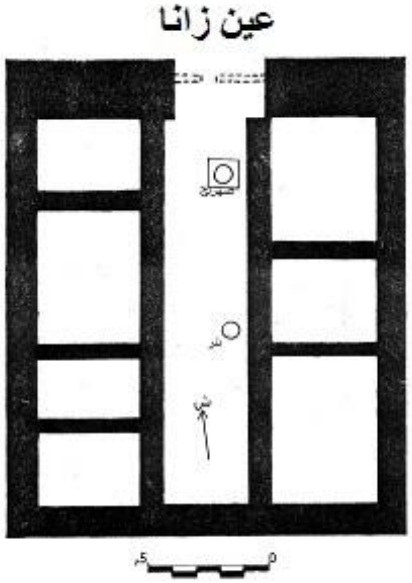

مخطط 21: برج محرس زانا (عين زانا).

عن: فتوش، ف.، دراسة الحصن البيزنطي لزانا، مذكرة

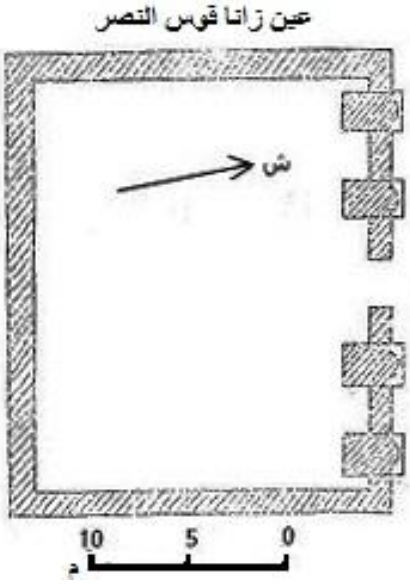

مخطط 22: برج محرس زانا (عين زانا).

عن: DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 16.

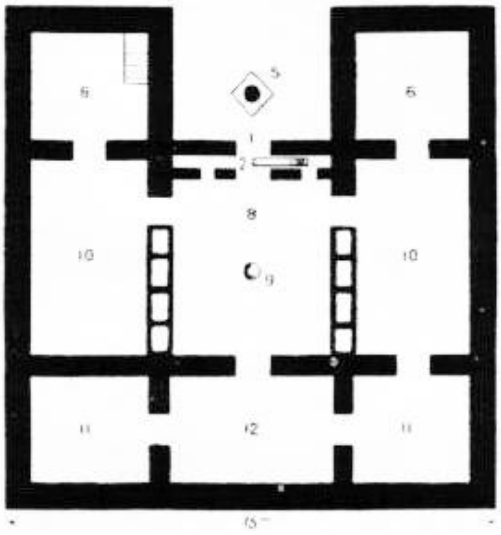

مخطط 23: برج محرس بنواحي تبسة حسب العسكري قينى (GUENIN). عن: DUVAL, N., « L'état actuel des recherches sur les fortifications de Justinien en Afrique », in XXX Corso Di Cultura Sull'arte Ravennate e Bizantina, Seminario Giustiniano, Ravenna, 6-14, marzo, 1983, p. 195.

5- الحواجز (Clisurae):

وهي أسوار أو خنادق أو غيرهما مما كان يقام في نقاط معينة لمنع العدو من استعمال مسلك خفي لا يخضع لمراقبة الحاميات العسكرية المرابطة في واحدة من المنشئات السابق ذكرها، ومشيدة بشتى المواد البنائية.

6- <u>الأديرة والكنائس المحصنة (Monasteria)</u>:

تحوي العدد القليل من جنود الجيش البيزنطي، وكذا فقد جُنِّد رهبان هذه المباني الدينية بإعطائهم السلاح وتحويل أديرتهم المفتوحة -أي بدون أسوار تحصينية- إلى شبه قلاع بأسوار دفاعية محصنة. بتزويدها بأبراج زوايا دائرية صغيرة الحجم عامة. ففي كل واجهة من الواجهات الأربع نجد أبراجا نصف دائرية، شرفات ومزاغل. أما بالنسبة للتوزيع الداخلي للدير، فتوجد مساكن الرهبان-الجنود في الطابق الأرضي وساحة بها خزان أو خزانان، البوابة محروسة من طرف برجين نصف دائريين وبوابة مشبكة من الحديد (Herse). كذلك يوجد خندق محفور حول كل المبنى، سمك الجدران ما بين 1م إلى 1.5م. ومثال ذلك ليبكيس ماغنا، سوس، قرطاجة[1].

7- <u>سجون الدولة</u>:

-أين يسجن المساجين المحكوم عليهم بالإعدام والرهائن-، تحتوي على غرف سكنية وثكنة خاصة بالجنود، خزانات المياه، مزودة بأبراج بارزة إلى الداخل وتتحكم في ساحة أين يتجول بها المساجين. يوجد ثلاثة أنواع من الغرف. الأول: غرفة لا تحتوي على باب ولا نافذة. الثاني: مخصصة للمساجين. الأخير: غرفة خاصة بالرهائن فقط.

خارج السور الأحادي المحصن نجد ثكنة تحتوي على 90 رجلاً و30 حصاناً، وخزَّان كبير واسع الأبعاد يستطيع أن يحتوي على عدة ملايين من اللترات من الماء والذي يُجلب بواسطة قناة ناقلة للمياه تمر على المدينة وتموِّلها.

8- <u>الملاجئ</u>:

هي أماكن اللجوء يلجأ إليها السكان أثناء الحرب ليختبئوا من هجمات العدو. وتوجد في الأماكن العالية بجوار المراكز السكنية، أو تشغل وسط القرية، لكي توفر في أي حالة من حالات الطوارئ ملجئاً آمناً لسكان السهول -أي الضواحي والأرياف-. وطريقة بنائها ليست محكمة، وفي الحقيقة، هذه المنشآت تُؤرخ عامة في فترة ما بعد حكم جوستينيانوس، ومن جهة أخرى إن إنشاءها لا يرجع إلى السلطة الإمبراطورية، وإنما أنشئت من طرف الأهالي المحليين للدفاع عن أنفسهم. وفي بعض الأماكن المهمة الإستراتيجية نجد هذه الملاجئ محمية من طرف قلاع.

وهي عبارة عن مكان مُسوَّر بأسوار ضخمة، واسعة الأبعاد نوعا ما، بشتى أنواع المواد البنائية، عادة ما تكون هذه الملاجئ مدعمة بأبراج ومحارس على طول أسوارها، وبها بوابة واحدة تفتح بين برجين في اغلب الحالات.

يوجد عدة أنواع من الملاجئ من بينها ملاجئ داخل المدن، ملاجئ في الأرياف. فالملاجئ داخل المدن: في البعض الأماكن سكان المدن لا يكتفون بالأبراج والمحارس، والتي لم تحقق لهم الأمن والسلام

1- PROCOPIUS, Buildings, VII, Op. Cit., London, 1971.

ولم تدافع عن العباد والبلاد ولهذا بنيت الأسوار في مكان عال في المدينة. أما الملاجئ التي بنيت في الأرياف: وهي مبنية من اجل أن تستخدم كأماكن لإيواء سكان الأرياف (**مخطط 24–25**).

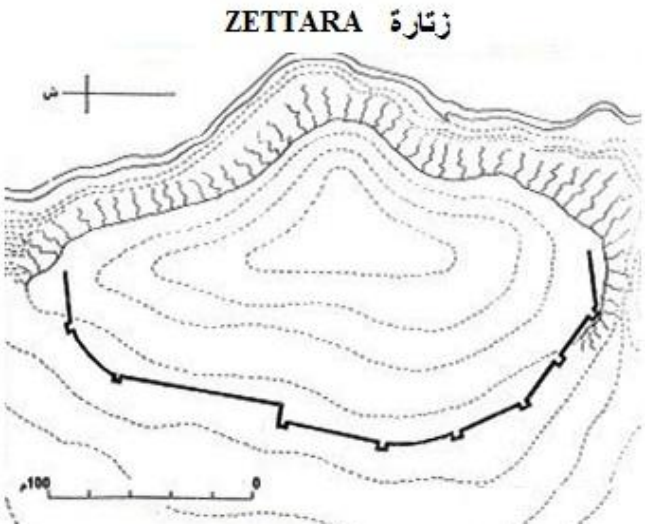

مخطط 24: ملجأ زتارة (كاف بنزيون).

عن: GSELL, S., Op. Cit., 1901, p. 266.

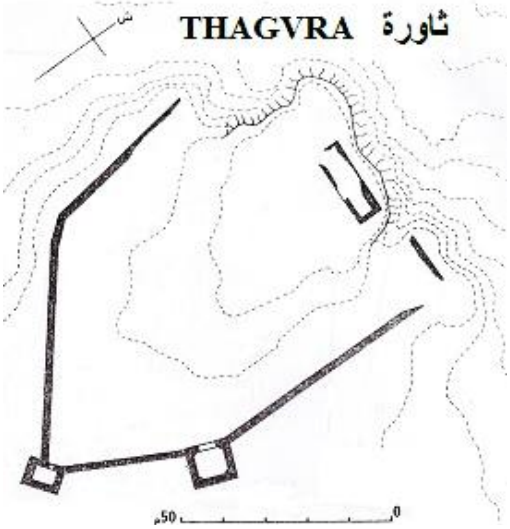

مخطط 25: ملجأ ثاقورة (تاورة).

عن: GSELL, S., Op. Cit., 1901, p. 286.

9– المعسكرات (Camps):

وهي ضمن أنماط المنشآت المحكمة البناء ذات الوظائف الدفاعية الحربية، والمعسكر وحدة بنائية تشيد وفق نمط عماري خاص تهدف في مخططها العام إلى تخصيص مساحة من الأرض محاطة بسور دفاعي مستحكم البناء، تتوزع داخله مرافق عمارية لإيواء الجند وأماكن لخزن الأسلحة والمعدات الحربية بكافة أنواعها ومخازن للمواد الغذائية وغيرها من المرافق الخدمية الأخرى. وان يكون له ساحة أو ساحات واسعة للقيام بالتدريبات والاستعراضات العسكرية. وهناك أنواع أخرى منه أقيمت خارج المدن عند أطراف الممالك وحولها، وكانت بمثابة قواعد عسكرية تتمركز عندها الحاميات والقوات المسلحة، وتعتبر مقراً لانطلاق الحملات العسكرية صوب المدن التي تعلن العصيان على السلطة المركزية، والبعض منها كان يُشيَّد ضمن نطاق حدود المدن وأحيانا ضمن حيز المدينة نفسها.

وفي الفترة البيزنطية، كانت تبنى حسب الطريقة التي أشار إليها كتاب الإمبراطور موريكيوس: ستراتجيكون (Maurice's Strategikon). وهي من المستحسن، أن يكون مربعاً أو مستطيلاً وبه طريقان متعامدان يؤديان في النهاية إلى بوابة تفتح في هذا المعسكر. ويحاط الكل بخندق، ويُحرس من الخارج بوساطة الخيالة للإنذار المبكر لقرب العدو.

نجح صولومونيس في بناء هذه المنشآت وترميم جلها حسب شهادة بروكوبيوس في كتابه "بناءات جوستينيانوس"، الذي ذكر فيه أنّه تمّ بناء 150 مدينة تحت حكم جوستينيانوس (أي المبنية كلية والمرممة التي أهملت صيانتها في الفترة السابقة). هذا لا ينفي انه لم تكن بناءات أخرى بعده، وإنما كانت محتشمة مقارنة بما قدمه جوستينيانوس عند احتلال إفريقيا. والغرض من هذه البناءات في الأخير، للاحتماء من الأهالي سواء الذين يسكنون في المدن وخاصة أولئك القاطنين في الريف، ولإظهار قوة السلطة الإمبراطورية التي لا تتوان في معاقبة الفلاحين وكبار الملاك المتهربين وممتنعين عن إعطاء الضرائب.

بعد مرور أربع سنوات من الهدوء[1] وبالضبط في سنة 543م، ظهرت ثورة داخلية قام بها سرجيوس (Sergius) ، دوق مقاطعة الطرابلسية، استهدفت الاستقلال عن السلطة البيزنطية، حيث امتدت هذه الثورة إلى البيزاكينا، وفي محاولة إخمادها من طرف صولومونيس، وقعت معركة قريبة من كيليوم[2] (Cillium)، إذ قتل بعد انهزامه فيها في 544م، ومنه اجتاحت قبائل المور مقاطعة البيزاكينا، وعاثت فيها وحصّلت الغنائم[3].

خلف صولومونيس القائد العسكري آرتبان (Artaban)، استدعي هذا الأخير إلى القسطنطينية وحلّ محله يوحنا تروقليتا (Johannos Troglita) سنة 546م، الذي أعاد بصفة جزئية الأوضاع التي كانت في وقت سابقه صولومونيس. في بداية 547م، استعاد البيزاكينا وهزم في منطقة سبيطلة الملك الموري أنتالاس. في 548م، نجح في صد هجوم موري جديد في جنوب البيزاكينا، وقتل قائد موري اسمه كاركاسان (Carcasan) ثم أجبر أنتالاس للاستسلام. بعد هذه الحوادث بخمسة عشر سنة عرفت إفريقيا هدوءاً نسبياً، ولم يحدث أي تمرد موري يُذكر. ولا في أي جزء من اسبانيا، فضلا عن أن المقاومة الطويلة التي أبداها القوط الشرقيون بإيطاليا قد قضى عليها. وبذا عاد البحر المتوسط فأصبح من جديد بحيرة رومانية.

حرصت السّلطة الإمبراطورية على تنفيذ المحور الثالث للوصول إلى مبتغاها، لهذا أبرز بليساريوس منذ البداية نفسه لأهالي إفريقيا بمثابة المحرر من النير الوندالي، وحرص على انضباط جيشه وحسن سيرته وذلك بتقديم صورة إنسانية خلقية حسنة، يصون بذلك ممتلكات الأهالي ويحترم النفوس[4]، لأنّ كسب ثقة الأفارقة بمثابة جيش مجهز، فقد رحّب رجال الكنيسة الكاثوليكية والطبقة الثرية به وبجيشه كل

1- CORIPPUS, Johannide, Cambridge, 1970, III- 28- 34.

2 – جنوب–شرق تبسة.

3 – ALBERTINI, E.; MARÇAIS, G.; YVER, G.; PRIGENT, E., Op. Cit., p.125.

4 – DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 19.؛ دريسي، سليم المرجع السابق، ص. 63.

ما مروا في طريقهم بحاضرة من حواضر إفريقيا، وفتح لهم الطريق إذ أصبح السكّان يمدّونهم بيد المساعدة بتموين الجنود بكل ما يكسبون وكأنهم يسيرون في بلاد آمنة[1].

في 15/ 09/ 533م، احتل بليساريوس قرطاجة بعد انتصاره على جليمار الملك الوندالي في المعركة، فحافظ على نفس السيرة التي أبداها عند نزوله على ارض إفريقيا، وأمَّن المدينة بكل ممتلكاتها بما فيها العامة والخاصة للأهالي[2].

عقب إعادة احتلال المقاطعات الوندالية، عقد القائد البيزنطي بليساريوس مع كبير أساقفة قرطاجة مجمع الأساقفة الأفريقيين احتفاء بالنصر وتقديما للولاء[3] بأمر من جوستينيانوس، من شأنه تثبيت القدم البيزنطية في افريقيا، فكان عدد الحاضرين حوالي 200 شخص يمثلون أبرشيتهم، ولم يحضر ممثلو كنائس موريطانيا، لاستقلال مقاطعتهم عن الكيان الوندالي والروماني[4].

بعد الاحتلال البيزنطي لإفريقيا[5] مباشرة، اتبع جوستينيانوس في بداية الأمر أي بين سنتي 533م-536م[6]، سياسة دينية غير مستقرة ضد كنيسة الهراطقة وخاصة الاريوسية، هذا التردد في تحديد سياسته بكلّ وضوح راجع بإجماع المؤرخين المختصين إلى الحذر المتوخى من طرفه لهشاشة الوضع الديني والسياسي بالمنطقة وحرصا منه على امتلاك هذه الأمصار. بعدم إثارة الحساسيات الدينية ضد الأريوسيين من وندال وأفارقة انضووا تحت ولاء الوندال واخلصوا لمذهبهم، وبالتالي حاول جوستينيانوس أن يقنع الكنيسة الكاثوليكية بضرورة المصالحة مع الهرطقة، هذا لاسيما لأغراض سياسية[7]. حيث أمر

1- LECLERCQ, H., L'Afrique Chrétienne, II. Paris, 1904, p. 219.؛ دريسي سليم، نفسه، ص. 63.

2- LECLERCQ, H., Ibid., pp. 319- 320. ؛ دريسي، سليم، نفسه، ص. 64.

3- يلعب رجال الدين دور فعال في مختلف مجالات الحياتية في السيطرة على مؤمنيهم، والتحكم في حسن سير المجتمع حسب عقيدتهم ونظرتهم للطريق القويم الذي حدد في عدة قرارات وثقت في المجمعات الكنسية سواء المحلية أو الجهوية أو المسكونية (عن: حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2008م، ص. 09).

4- شنيتي، محمد البشير، المرجع السابق، ص ص. 409-410.

5- من احد أسباب احتلال جوستينيانوس لإفريقيا، هو استنجاد الكاثوليك به عندما لم يسترجعوا ممتلكاتهم الدينية في فترة العفو التي انتهجها هيلديريك، وبالتالي مارسوا على جوستينيانوس ضغوطا مما شجعه على احتلال إفريقيا، ومنه ركز احتلاله لإفريقيا على فكرتين، إحداهما حماية قطيع المسيح الكاثوليك، فتلقى سند ومباركة كنيسة إفريقيا لهذا الاحتلال. للمزيد من التفصيل يراجع: حاجي، ياسين رابح، المرجع السابق، 2002م، ص ص. 09-21.؛ CHASTAGNOL, A., La fin du monde antique. De Stilicon à Justinien (V siècle et début VI), Paris, 1976, pp. 70-71. ; OSTROGORSKY, G., Histoire de l'état Byzantin, Paris, 1956, p. 107. ; DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 409.

6- اصدر قانون فاتح أوت 535م في نوفلا 37، 1 و3: ينص فيه، استرجاع كل الممتلكات الدينية المصادرة من طرف الوندال إلى أصحابها الشرعيين الكاثوليك بما فيها الأواني الليتورجية التي استعملها الهراطقة. عن: MODERAN, Y., «L'établissement territorial des vandales en Afrique», In An Tard., 10, 2002, p. 119; MODERAN, Y., «Le christianisme africain à l'époque vandale et byzantine », In catalogue de l'exposition Tunisie : du christianisme à l'islam (IV-XIV siècle), Lattes, 2001, p. 34.

7- MODERAN, Y., Op. Cit., 2002, p. 120. ; KAEGI, W. E., «Arianism and the Byzantine army in Africa 533-546», In Traditio, 21, 1965, pp. 23-53.

قائده بليساريوس بعدم مضايقة جنوده ذوي المذهب الأريوسي[1] لكي لا يُحدثوا مشاكل داخل الجيش وكذا في المنطقة[2]. بعد مراسلات من الطرفين أي بين جوستينيانوس وإكليروس روما، خضع الإمبراطور للأمر الواقع تحت هذه الضغوطات التي مورست عليه من جهة الإكليروس، أن يقبل طلب الكنيسة الكاثوليكية الإفريقية خاصة وأرغمته على إصدار قانون يفصح فيه عن سياسة واضحة تجاه الهرطقة: ومنه فقد تحدد منع الكنيسة الأريوسية منعا باتا من إحياء شعائرها، و تُصادر كل ممتلكاتها العقارية وغير العقارية[3] بدون استثناء لصالح الكاثوليكية[4].

وبالتّالي أعاد للكاثوليك ممتلكاتهم وحياتهم الكنسية والاجتماعية والقيام بشعائرهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وهذا بمرسوم إمبراطوري اقره جوستينيانوس[5] بإعادة أملاكهم وكنائسهم[6]، ودحض الهراطقة واليهود ومصادرة ممتلكاتهم لصالح الكاثوليك، وإبعاد أتباع الهراطقة واليهود من الوظائف العمومية في الإمبراطورية ولم يعد لهم الحق في انتخاب رؤسائهم أي لا اجتماعات بعد الآن[7]. ومنه قامت الكنيسة الكاثوليكية بإعادة تنظيم نفسها بعدما تصدعت أيام جنسريك وخلفائه حيث اجتمع 217[8] أو 220[9] أسقف في قرطاجة لمباحثة ذلك وقام برئاسة الاجتماع الأسقف المطران ريباراتوس Reparatus ومنه تكونت أربع مقاطعات كنسية وهي البروقنصلية ونوميديا وموريطانيات الثلاث والبيزاكينا أو المزاق ومن ضمنها الطرابلسية[10].

1- وجود عدد معتبر من وحدات الجنود الأريوسيين في الجيش البيزنطي، بدون أن ننسى العمل الجبار الذي قام به الإكليروس الأريوسي في عملية التبشير التي نجحت حتما بما أن مؤرخي العصر شهدوا بذلك من شأنه ترك عدد لا يُستهان به من أتباع الاريوسية في إفريقيا وخاصة في البروقنصلية سدة الحكم البيزنطي الإفريقي.

2- MODERAN, Y., Op. Cit., 2002, p. 120. ; PROCOPE de CESAREE, Op. Cit., II, 1, 4. ; KAEGI, W. E., Op. Cit., pp. 30-31. ; PRINGLE, D., Op. Cit., p. 69.

3- حتى ممتلكات النساء الوندياليات اللواتي أصبحن زوجات بعض جنود من الجيش البيزنطي، في الحقيقة، جوستينيانوس لم يتفطن لهذا وهو بإقدامه على اتخاذ هذا القرار سوف يشعل غضب النساء اللواتي بدورهن سوف يحرضن أزواجهن الجنود اغلبهم من المتحالفين foederati للقيام بتمردات على مستوى الجيش، وبالفعل بعد احتلال إفريقيا بسنتين ونصف حدث تمرد برئاسة ضابط officier من وحدة المتحالفين اسمه ستوساز الوندالي.

4- MODERAN, Y., Op. Cit., 2002, p. 120. ; Justinien, Novelle 37, 2-4.

5- لأنّه كان يرى نفسه بمرتبة المخلص لأتباع الكنيسة، فقد مثل نفسه كقسطنطينوس الذي يعتبر راعي المسيحية وبالتالي بمثابة يسوع المسيح. لمعرفة المزيد عن دور الإمبراطور المسيحي اتّجاه دينه، يراجع: DANIELOU, J. ; MARROU, H. I., Nouvelle histoire de l'église, I, Des origines à saint Grégoire le grand (604), pp. 282-285.

6- PROCOPIVS, VII., Buildings, V, vii, 16-17. ; DIEHL, C., Op. Cit., 1896, p. 398.

7- DIEHL, C., Op. Cit., 1896, pp. 418-419.

8- BALLU, A., Les ruines de Timgad (THAMVGADI), Paris, 1897, p. 58.

9- DIEHL, C., Op. Cit., 1896, pp. 410-411.

10- BALLU, A., Op. Cit., 1897, p. 58. ; DIEHL, C., Op. Cit., 1896, pp. 419-420. ; MODERAN, Y., Op. Cit., 2001, p. 34.

البيبليوغرافيا:

1. بافولولو، م.، مجاني، ع.، حصن مادوروس البيزنطي، مذكرة ليسانس غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2006م-2007م.
2. حاجي، ياسين رابح، البازيليكات المسيحية في مقاطعة نوميديا، دراسة أثرية وتنميطية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، 2008م.
3. حاجي، ياسين رابح، التحصينات الدفاعية البيزنطية في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 2002م.
4. خليل سعيد، "الربط الإسلامي"، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، غير منشورة، 1972م.
5. دريسي، سليم، البيزنطيون في شمال إفريقيا، الاحتلال والعمارة الدفاعية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2008م.
6. شنيتي، محمد البشير، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، الجزء الثاني، الجزائر، 1999م.
7. فتوش، ف.، دراسة الحصن البيزنطي لزانا، مذكرة ليسانس غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
8. فرج، وسام عبد العزيز، دراسات تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية من 324-1025م، إسكندرية، 1987م.
9. مانجو، سيريل، العمارة البيزنطية، ترجمة: رندة فؤاد قاقيش، دمشق، الطبعة الأولى 1999م.
10. نوفلا 37، 1 و3.

11. ALBERTINI, E.; MARÇAIS, G.; YVER, G.; PRIGENT, E., L`Afrique du nord française dans l`histoire, Paris, 1955.
12. BALLU, A., Les ruines de Timgad (THAMVGADI), Paris, 1897.
13. BEN ABDELLAH, Z.; GOLVIN, J-C., «La frontière Byzantine de Ksar Lemsa », Tunisie : Du christianisme à l'Islam IV-XIV siècle, lattes, 2001.
14. BLAS DE ROBLES, J.M., Libye. Grecque, romaine et byzantine, Aix-en-Provence, 2005.
15. BURY, J. B., History of the later roman empire: "from the death of Theodosius I, to the death of Justinian", II., S^{t} Martins press, 1958.
16. CHASTAGNOL, A., La fin du monde antique. De Stilicon à Justinien (V siècle et début VI), Paris, 1976.
17. Codex Justinianus, I, 27, 2, 4.
18. CORIPPUS, Johannide, Cambridge, 1970, III- 28- 34.
19. DANIELOU, J.; MARROU, H. I., Nouvelle histoire de l'église, I, Des origines à saint Grégoire le grand (604).
20. DIEHL, C., Justinien et la civilisation byzantine au VI Siècle, I, Paris, 1901.
21. DIEHL, C., L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Paris, 1896.
22. DIEHL, C., Rapport sur deux missions archéologiques dans l'Afrique du nord, Paris, 1894.

23. DURLIAT, J., Les dédicaces d'ouvrages défense dans l'Afrique byzantine, Palais Farnèse (Rome), 1981.
24. DUVAL, N., « L'état actuel des recherches sur les fortifications de Justinien en Afrique », In XXX Corso Di Cultura Sull'arte Ravennate e Bizantina, Seminario Giustiniano, Ravenna, 6-14, marzo, 1983, pp. 149-201.
25. GIBBON, E., The Decline and fall of the Roman Europe, II., New york, s. d.
26. GREGORY, S., «Was there an eastern origin for the design of late Roman fortifications? Some problems for research on forts of Rome's eastern frontier». In JRA. Supplementary Series Number Eighteen, the ROMAN ARMY IN THE EAST, ed. by: david L. KENNEDY, Ann Arbor, 1996, pp. 169-209.
27. GSELL, S., Les monuments antiques de l'Algérie, Paris, 1901.
28. HADJI, Y-R., «Thouda, aperçu archéologique », In Aouras, 3, 2005, pp. 335-351.
29. Justinien, Novelle 37, 2-4.
30. KAEGI, W. E., « Arianism and the Byzantine army in Africa 533-546 », In Traditio, 21, 1965, pp. 23-53.
31. LASSUS, J., La forteresse Byzantine de Thamugadi: fouilles à Timgad, 1938-1956, Paris, 1981.
32. LECLERCQ, H., L'Afrique Chrétienne, II. Paris, 1904.
33. LEWIN, A., «Roman urban defences in the east in late antiquity: the case of the Negev», In The eastern frontier of the roman empire: Proceedings of a colloquium held at Ankara in Sept. 1988, Part. I., in BAR international Series 553 (I), Oxford, 1989, pp. 267-275.
34. LOT, F., L'art militaire et les armées Au moyen âge en Europe et dans le proche Orient, I., Paris, 1946.
35. MAITROT, A., « Les fortifications nord-africaine », In les Archives berbères, publication du comité d'études berbères de Rabat année 1915-1916, I /fasc. 03, Paris, 1916, pp. 3-25.
36. MASQUERAY, E., « Le djebel Chechar », In R. Af., 22, 1878, pp. 259-281.
37. MODERAN, Y., « L'établissement territorial des vandales en Afrique », In An Tard., 10, 2002, pp. 87-122
38. MODERAN, Y., « Le christianisme africain à l'époque vandale et byzantine », In catalogue de l'exposition Tunisie : du christianisme à l'islam (IV-XIV siècle), Lattes, 2001, pp. 31-36.
39. OSTROGORSKY, G., Histoire de l'état Byzantin, Paris, 1956.
40. PARKER, S. T., Romans and Saracens, a history of the arabian frontier, USA, 1986.
41. PRINGLE, D., The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest": An account of the military history and archaeology of the African provinces in the 6th and 7th Centuries, BAR. Series 99, 2ed Vol., 1981.
42. PROCOPE DE CESAREE, La Guerre Contre les Vandales, traduit et Commenté Par: ROQUES, D., Paris, 1990, II., VIII.
43. PROCOPIUS, Buildings, General index to Procopius, translated by the late H.B. DEWING, London, 1971, V, p. 462.
44. PROCOPIUS, History of the Wars, Book I., Translated by DEWING, H.B., London, 1971.
45. SOUTHERN, P.; DIXON, K.R., The late Roman Army, London, 1996.